

مدارس الثقافة بالقبروان

في القرن الثالث الهجري

الدكتور: عبد المجيد بن حمدة

رئيس جامعة الزيتونة

رئيس المجلس الإسلامي الأعلى

تقدم في بحث : نشأة الثقافة الإسلامية بالقبروان، الذي نشرته في العدد الثاني من مجلة جامعة الزيتونة، بيان أهمية هذه الثقافة وأطوار نشأتها ودعائمتها وأشهر أعلامها الأوائل، وفي هذا البحث سأتناول أهم مدارس الثقافة بالقبروان والوقوف على عناصر تميزها وملامح تطورها وطلائع نمائها، وهي في القرن الثالث الهجري، تبدو ممثلة في مدرسة فقهية ثرية بمذهبين حنفي ومالكي، ومدرسة كلامية تتجاذبها أطراف فاعلة سنية وخارجية - إباضية - ومعتزلية وشيعية - اسماعيلية - ومدرسة علمية تأسست في بيت الحكمة القبرواني، ومدرسة أدبية تمثل البذور الأولى لما سيتطور، مع الأيام إلى إضافات متميزة في اللغة والشعر والنقد، وما سيتولد عن ذلك من تلاقح وتفاعل مع بعض العلوم الإسلامية خاصة علمي التفسير والقراءات...

المدرسة الفقهية القبروانية

المذهب الحنفي

أخذ الأفارقة عن مالك وأبي حنيفة وأصحابهما، ورجعوا بفقهما، وكان أخذهم عن مالك وأصحابه أكثر من أخذهم عن أبي حنيفة، لأنهم في

طريقهم، غير أن مذهب أبي حنيفة، كان أسبق في الظهور، بالقيروان، من مذهب مالك.

واختلف المؤرخون حول أول من أتى به إليها، فالمقدسي يذهب إلى أن أسد بن الفرات هو أول من أدخل مذهب أبي حنيفة إلى إفريقية. يتضح هذا مما ذكره، عند حديثه مع بعض أهل العلم الأفارقة الذين سألهم : كيف وقع مذهب أبي حنيفة إليكم، ولم يكن على سابلتكم؟ قالوا : قدم عبد الله بن وهب⁽¹⁾ من عند مالك، وقد حاز من الفقه والعلم ما حاز، استنكف أسد بن الفرات أن يدرس عليه، لجلالته وكبر نفسه، فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلاً. فلما طال مقامه عنده قال له : ارجع إلى ابن وهب، فقد أودعته علمي، وكفيتكم به الرحلة، فصعب ذلك على أسد .

وسأل : هل يعرف لمالك نظير؟ فقليل له : فتى بالكوفة، يقال له : محمد بن الحسن، صاحب أبي حنيفة. قالوا : فرحل إليه، وأقبل عليه محمد إقبالاً لم يقبله على أحد، ورأى فهما وحرصاً، فزقه الفقه زقاً، فلما علم أنه قد استقل، وبلغ مراده فيه، سيّبه إلى المغرب. فلما دخلها اختلف إليه الفتيان ورأوا فروعا حيرتهم، ودقائق أعجبتهم، ومسائل ما طنت على أذن ابن وهب، وتخرج به الخلق. وفشا مذهب أبي حنيفة بالمغرب⁽²⁾.

أما حسن حسني عبد الوهاب فقد حقق هذه المسألة وخرج منها برأي يخالف ما ذهب إليه المقدسي، وهو أن مذهب أبي حنيفة قد ظهر على يد عبد الله بن عمر بن فروخ الفارسي، (ت 789/172) وأصله من خراسان، أقبل على القيروان، وقرأ على محدثيها ثم رجع إلى المشرق وروى عن الأعمش سليمان بن عمران، التابعي، أحاديث كثيرة، ثم اجتمع بأبي حنيفة وصحبه مدة طويلة، وكتب عنه مسائل بلغ عددها عشرة آلاف مسألة، ثم التقى بمالك وأخذ الواحد عن الآخر، وعاد ثانية إلى إفريقية، فأظهر آراء أهل العراق. (فمن ابن فروخ وعن تلاميذه انتشرت آراء أهل العراق في إفريقية، وكان هو أول من أظهرها بها)⁽³⁾. ويعتمد النبال والجنحاني رأي المقدسي، يقول الأول : «أما مذهب أبي حنيفة، فإنه لم يظهر في جميع البلاد الإفريقية

(1) عبد الله بن وهب: له كتاب الشعر والغناء، رواية عيسى بن مسكين عن سحنون عن ابن وهب. مخطوط المكتبة العتيقة القيروانية به 22 صفحة، رقم صفحاته 1817-1838 من الفهرست الذي أعده النبال سنة 1963.

(2) أحسن التقاسيم، ليدن، 1877، ص 236-237.

(3) الإمام المازري، ص 23 وانظر لنفس المؤلف (ورقات، 332/2).

إلا من أسد بن الفرات»(4). ويقول الجنحاني : «إن المذهب الحنفي دخل القيروان، وانتشر فيها على يد أسد بن الفرات»(5).

ويذهب يحيى هويدي، إلى أن المذهبين الحنفي والمالكي دخلا إلى الشمال الافريقي، أيام الأغالبة، في وقت واحد(6).

وبعد عرض هذه الآراء يمكن استنتاج، أن أول من نشر آراء أهل العراق بإفريقية، هو ابن فروخ، استنادا إلى الاعتبار التاريخي؛ وأن أسد بن الفرات هو الذي تولى بعد ذلك مواصلة نشر هذه الآراء، يوم مال إلى المذهب الحنفي، إذ يذكر المؤرخون أنه مال إلى هذا المذهب بعد رجوع سحنون من الفسطاط، بالمدونة حاملا لرسالة من ابن القاسم يطلب فيها من أسد تعديل كتابه الأسدية، الذي تلقاه عنه، وتصحيحه على مدونة سحنون، واستنكف أسد أن يعدل كتابه على يد تلميذه سحنون، أو أنه أراد تعديله، ولكن نصح له بأن لا يفعل(7). فمضى أسد ينشر فقها آخر انفرد بمعرفته دون سحنون، وهو الفقه الحنفي، فلما اختلف إليه فتیان القيروان رأوا فروعا حيرتهم، ودقائق أعجبهم وبذلك فشا المذهب الحنفي على يديه.

أسد بن الفرات(8) (830/214763760/145142)

هو أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان، أصله من أبناء جند خراسان ولد بحران أتى به أبوه القيروان وهو ابن سنتين، وبها حفظ القرآن، ثم لما كبر ذهب إلى علي بن زياد بتونس فتعلّم عليه وأخذ عنه الموطأ. وارتحل بعد ذلك إلى المشرق، فقصد مالك بن أنس، وأقام عنده مدة يسمع منه، ثم قال له ذات يوم : زدني يا أبا عبد الله سمعا منك. فقال له مالك حسبك ما للناس. ويبدو أن أسدا كان كثير السؤال، متعطشا، متلهفا إلى سماع أجوبة مالك، وقد وجد فيه بحرا زاخرا بكنوز العلم، وراوية ثبта، مجتهدا. وألح عليه بالسؤال ذات مرة فقال له: حسبك يا مغربي، إن أحببت الرأي، فعليك بالعراق(9).

(4) محمد البهلي النبال، المذاهب في إفريقية، مجلة الندوة، عدد 1، سنة 1955.

(5) الحبيب الجنحاني، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ص 158.

(6) يحيى هويدي، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الافريقية، القاهرة، 1966، ص 10.

(7) عياض، تراجم أغلبية، ص 60.

(8) انظر ترجمته في (أبو العرب، طبقات، ص 163، المالكي، رياض 1/ 162، عياض، ترتيب المدارك،

465/2 ابن فرحون، الديباج، ص 98، الديباج، معالم 2/2).

(9) المالكي، رياض، 1/ 173.

وقيل إنه لاحظ مرض مالك فخاف أن يفوته ضياع الوقت أو أن مالكا لما لم يقدر على إسماعه أكثر مما أسمعته، قال له: ارجع إلى ابن وهب، فقد كفيتمكم به الرحلة(10). وأنداك سأل عمن يعرف بالفقه من أمثال مالك، فأشير عليه بأصحاب أبي حنيفة.

وأيا ما كان الأمر فإن أسدا حظي بسماع المذهبين الفقهيين، وتمكن من الرجوع إلى بلاده بمجموعة من الكتب ذات قيمة عظيمة، حصل بسببها على رئاسة(11)؛ وكان بذلك مؤسس المدرسة الفقهية القيروانية.

لقي بالعراق أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وأسد بن عمرو، وأخذ الحديث عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، والمسيب بن شريك. وروي أنه سمع من هشيم أثني عشر ألف حديث.

- ولزم أسد محمد بن الحسن مدة طويلة، حتى انه كان يسمعه بالليل وحده، خصوصا وقد أسكنه عنده في بيت من سقيفة داره(12).

ثم انتقل أسد إلى مصر فلقي ابن القاسم، وجمع عنه كتابه الأسدية(13) ثم وجّه معه ابن القاسم بضاعة وقال له: «إذا قدمت فبيعها واشتر بئمنها رقوقا، وانسخ الكتب ووجه إلي»(14).

ولما رجع أسد إلى القيروان نشر الكتب بين الناس، ولكن لما بلغه أن سحنونا أراد التحصيل عليها شحّ بها(15)، فاحتال سحنون في التحصيل عليها، ثم ذهب بها إلى ابن القاسم فعدل عن بعض آرائه فيها وأجاب عما كان يشك فيه واستدرك منها أشياء كثيرة، لأنه كان أملاها على أسد من حفظه(16). وقد أشرت، من قبل، إلى أن هذا أحد الاسباب التي دفعت بأسد إلى اظهار آراء أهل العراق وذلك إثر امتناعه عن إصلاح كتابه الأسدية. ولما شاع الأمر بين الناس، تنحوا عنه، والتفوا حول سحنون، فخرج إليهم بكتب

(10) المقدسي المصدر السابق، ص 236.

(11) عياض، تراجم أغلبية، ص 59.

(12) المالكي، المصدر السابق، 1/ 175.

(13) الأسدية جملتها ستون كتابا (عياض، تراجم ص 58).

توجد منها نسخة بالمكتبة الأثرية بالقيروان، كتب عنها Rizzitano أستاذ بجامعة بالرمو بحثا بالمجلة الشرقية الإيطالية (فهرست الرضاع، ص 160، حاشية) وبعد رجوع سحنون بالمدونة من القسطنطينية، برزت المدونة ونسيت الأسدية (عياض، تراجم، 62).

(14) المالكي، رياض، 1/ 179.

(15) عياض، المدارك، 2/ 471.

(16) ن . م، نفس الصفحة.

أبي حنيفة وأصحابه ورواها لهم فسمعها منه أكثر الكوفيين يومئذ (17). فكان أسد أعلم العراقيين بالقيروان كافة (18). واستمر المدنيون مع ذلك يسمعون منه، حتى كان إذا انتهى من سرد أقوال العراقيين يقول له بعضهم: أوقد القنديل الثاني، يا أبا عبد الله فيسرد أقوال المدنيين (19). وبذلك جمع أسد في تدريسه بين المذهبين (20)، وكان أقل تعصبا لمذهب مالك من سحنون، سألته بعضهم: أي القولين تأمرني أتبعه؟ فقال له: «إذا أردت الله والدار الآخرة فعليك بقول مالك؛ وإن أردت الدنيا فعليك بقول أهل العراق» (21).

ويصعب قبول هذا الرأي المنسوب إلى أسد، إذ فيه مبالغة وتعصب مالكي، فكيف يمكن اعتبار آراء الحنفية وأقوالهم، هكذا في جملتها، داعية إلى الدنيا متخلية عن الدار الآخرة؟

قال أبو العرب: «وكان أسد ثقة لم يكن فيه شيء من البدع. لقد حدثني بكر بن حماد، قال، قلت لسحنون: إنهم يقولون إن أسد بن الفرات، قال: القرآن مخلوق. فقال سحنون (والله ما قاله، ولو قاله ما قلناه) (22).

وكان أسد معروفا بشجاعته، عالما، عاملا، خرج مع أبي محرز للطنبذي لما ثار على زيادة الله الأول. وقاد الجيش لفتح صقلية، ولما تهيأ للخروج، التفت إلى الناس الذين تجمعوا لتشيعه وهو في مرفأ سوسة، وقد دقت الطبول وصهلت الخيل، فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، ثم أردف قائلا: «والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط، ولا أرى أحد من سلفي مثل هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام، فأجهدوا أنفسكم وأتعبوا أبدانكم، في طلب العلم وتدوينه، وكاثروا عليه واصبروا على شدته، فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة» (23).

ولم تجتمع الإمارة على الجيش وخطة القضاء لأحد، بإفريقية، إلا لأسد

(17) عياض، تراجم، 62.

(18) عياض، ترتيب المدارك، 474/2.

(19) عياض - تراجم - 64.

(20) الدباغ، معالم، 11/2.

(21) عياض - تراجم - 68.

(22) أبو العرب، طبقات، ص 164، وانظر: المالكي، رياض، 181/1؛ عياض، ترتيب المدارك، 473/2؛

الدباغ، معالم، 112/2.

(23) المالكي، رياض، 188/1.

الذي أبلى البلاء الحسن في غزوه، وأفاد في تدريسه وقضائه... ومات غازيا وعظم المذهب الحنفي فيما بعد على أيدي تلاميذ أسد من أمثال ابن أبي الجواد (ت 891/236) زوج ابنته اسماء وسليمان بن عمران (ت 884/270) وسليمان بن الهيثم صاحب كتاب أدب القاضي والقضاء (24).

وهكذا اتضح أن أسدا، أسس المدرسة الفقهية القيروانية وساهم في ترسيخ مذاهب أهل السنة، واستطاع أن يجمع بين مهمة القضاء وقيادة الجيش الذي غزا صقلية وأدى إلى فتحها نهائيا.

المذهب المالكي :

تم، كما سبق ذكره، ترسيخ المذهب الحنفي على يد أسد الذي كان له دور كبير في دعم المذهب المالكي، أيضا، إذ أسهم في نشر الموطأ وما تلقاه عن ابن القاسم — تلميذ مالك — من أقوال واجتهادات جمعها في كتابه المسمى بالأسدية، نسبة إليه.

فأسد من ركان المذهب المالكي ومن أبرز أعلامه، وهو أحد الذين تلقوه مباشرة عن صاحبه، من أمثال ابن فروخ وابن غانم (ت 789/172) وحاتر بن جسد القفصي والبهلول بن راشد الذين سبقوه إلى الأخذ عن مالك، بالمدينة.

أما دخول المذهب إلى إفريقية، فقد كان على يد علي بن زياد — أستاذ أسد — ومؤسس المدرسة المالكية الإفريقية.

فمن هو علي بن زياد (25) (ت 799/183).

هو أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبسي، أي عربي من قبيلة عبس، وقيل أصله أعجمي (26) ولد بطرابلس الغرب، ثم انتقل إلى تونس وتعلم بها، أخذ عن خالد بن أبي عمران، بإفريقية. ثم ارتحل إلى المشرق فأخذ عن مالك والليث بن سعد، والثوري، وابن لهيعة، ولزم مالكا وروى عنه الموطأ، وأظهر ذكاء في فهم أصول مذهبه، ثم رجع إلى تونس سنة (767/150) وأتى معه بالموطأ، فكان أول من أدخله، ثم مضى يدرس الفقه، ويروي ما تلقى في الشرق من كتب مثل الموطأ وجامع سفيان الثوري.

(24) حقق الكتاب فرحات الدشراوي.

(25) ترجمته في (المالكي، رياض 1/158: عياض، ترتيب المدارك، 2/326).

(26) أبو العرب، طبقات ص 222: عياض، ترتيب المدارك، 2/326.

وبلغت شهرته القيروان، فارتحل إليه طلبتها، فكانوا يتخرجون عليه أولاً، ثم يذهبون إلى المشرق للاستزادة، وحتى البهلول بن راشد وهو قرينه ومن طبقته أخذوا معاً عن مالك كان يأتيه من القيروان لاستفتائه والسماع منه. وقد قال سحنون : «ما بلغ البهلول بن راشد شسع نعل علي بن زياد» (27) وأقبل عليه أسد (28) وسحنون، وموسى بن معاوية الصمادي، فأخذوا عنه وانتفعوا به.

وبعد أن بذر علي بن زياد المذهب المالكي، توالى المرتحلون إلى المشرق، بهدف التلقي عن صاحب المذهب. وفعلاً فقد حظي بلقائه، بعضهم، كما ذكرت، كابن فروخ وابن غانم والبهلول...

واهتم الطلبة القيروانيون بمالك، كما اهتم بهم، فكان بعضهم، وهو ابن أبي حسان (ت 226-227/841-842) يعطي ثلاثة دراهم، كل يوم، لرجل، ليأخذ له موضعاً في مجلس مالك، بالقرب منه، فإذا جاء مالك، قام الرجل وجلس ابن أبي حسان في موضعه (29).

وبموت مالك انتقل هؤلاء إلى تلاميذه يستكملون الأخذ والرواية عنهم، وخاصة ما فعله أسد ثم سحنون، مع ابن القاسم وأشهب.

- وقلد الأفارقة مالكا في فقهه، بل قلدوه حتى في أحوال معيشته. فلما رجعوا إلى إفريقية أشاعوا مذهبه وطريقته في الأكل والملبس، بين الناس، فانتشر ذلك بينهم. وأصبح من تقاليدهم التمسك بمذهب مالك والتأدب بأدابه واتباع مسلكه؛ بل تطرفوا في بعض الحالات، حتى أصبحوا مالكية أكثر من مالك نفسه.

واشتد تعلق أهل القيروان بمذهب مالك، وفي مقدمتهم الفقهاء والطلبة، لما لاحظوا أن الأحناف أقبلوا على الأمراء وذوي النفوذ والتمسوا لهم الرخص (30) ويسروا لهم الأحكام، بالتأويل والقياس البعيد. ونفر المالكية من الأمراء الأغالبة إذ رأوهم قد فرضوا سلطانهم بالقوة، مستعينين بالجند والحرس السوداني.

(27) أبو العرب، طبقات، ص 212؛ 225.

(28) قال أسد : إني لادعو في خاتمة صلاتي لمعلمي وأبداً بابن زياد، لأنه أول من تعلمت منه العلم. (عياض، ترتيب المدارك، 2/327).

(29) عياض، تراجم، ص 76.

(30) الدباغ، معالم، 2/39.

وأحس الافريقيون بصفة عامة بإثارة في مشاعرهم من سوء معاملة الأغلبية لهم، ومن عصبيتهم العربية الظاهرة، فأصبح المالكية يمثلون حزب المعارضة، يعضدهم الشعب وبات مذهب مالك عنصرا من شخصيتهم القومية(31).

وعلل ابن خلدون عوامل تمسك المغاربة، عموما، بمذهب مالك(32)، وهي ترجع إلى عناصر أساسية :

1 — أن المغاربة يقتصرون في سفرهم لطلب العلم على الحجاز، وبذلك يتعلمون ويحجون.

2 — لم يكن أهل العراق، على طريقهم لذا لم يأخذوا علمهم.

3 — عنصر البداوة الغالب على المغاربة وهم يشتركون فيه مع أهل الحجاز.

4 — بقي الفقه المالكي غضا، لم تغيره الحضارة كما وقع في غيره من المذاهب بسبب عنصر البداوة. وأعتقد أن ابن خلدون، دقيق في ملاحظاته، وهو الرجل الذي استطاع أن يتعمق المجتمع الإسلامي ويتعرف ركائزه وخصائصه، وأحواله، منذ نشأته بالمدينة إلى قرنه الثامن/الرابع عشر. وهو المرجع، والرجل الذي أسس علم الاجتماع، بدون منازع، وتعتبر مقدمة كتابه : العبر، من أعظم ما أنتج الفكر الإنساني، في تاريخ الحضارة البشرية قاطبة.

وإني أوافقه في أن الحجاز كان، في أغلب الأحوال منتهى سفر المغاربة، لأن المدينة، وهي العاصمة الأولى، سياسيا وثقافيا، كانت مهبط الوحي، ومنزل الرسول، احتضنت، المدرسة النبوية التي تخرج منها الصحابة وكبار فقهاء المسلمين، وهم الذين انتهى فقههم إلى مالك الذي اشتهر بما جمعه عنهم في موطنه، فشددت إليه الرحال من جميع انحاء البلاد الإسلامية المترامية.

ولكن ابن خلدون نسي شيئا هاما هو رعاية مالك وإقباله على هؤلاء المغاربة المتعطشين إلى المعرفة الدينية الخالصة من كل شوائب التأويل والتضليل، ينهلون منها، مباشرة، ويجيبهم عن رسائلهم الكثيرة التي يبعثون بها والتي تتضمن استفتاءات وأسئلة عديدة...

(31) حسين مؤنس، مقدمة رياض النفوس، ص 13.

(32) المقدمة، ص 375.

كما لم يلح ابن خلدون، على هؤلاء المغاربة الذين سافروا إلى العراق وجلبوا مذهب صاحبه بحيث يكون دخول المذهبيين، في فترة متقاربة، بل ان بعض هؤلاء، كأسد، يمكن اعتباره مالكيًا، حنفياً، مؤسساً للمدرسة الفقهية القيروانية بفروعها، في مقابل المدرسة الفقهية التونسية التي أسسها استاذة علي بن زياد، في مدينة تونس.

كما نسي ابن خلدون أن المغاربة، في التقائهم بمالك وجدوا فيه خلاصة المدرسة النبوية: إماماً، محدثاً، فقيهاً، مجتهداً، متجنباً للتأويل والاغراب في التعليل، مذهبه واضح، مطابق لأصول العقيدة والشريعة السمحة، فلم تكن بهم حاجة للبحث عن غيره، وقد اكتفوا بعد وفاته بالأخذ عن تلاميذه.

أما حسين مؤنس فيعلل تشبث القيروانيين بالمذهب السني والمالكي خاصة، قصد الهروب من كل الفتن والاضطرابات والاتجاهات الشاردة التي تناقض الدين، والتي أدخلها إلى إفريقية أصحاب الرأي وأهل الضلالات والبدع. فتمسكوا بالنص وتربى في نفوسهم نفور من كل تخريج أو تأويل، ولو كان معقولاً. فكان هذا النفور حالة نفسية اختص بها أهل المغرب بسبب الفتن(33).

فلما ظهر مذهب مالك وتحدت معالمه في التزام القرآن والسنة والابتعاد عن التأويل والاقتصاد في القياس ما أمكن، ذهب إليه طلبة العلم، الأفارقة، يأخذون عنه في تقديس بالغ، ثم يرجعون إلى بلادهم ينشرون ما تعلموه، عنه. وجدوا فيه ضالتهم التي تحميهم من ضلال أصحاب الآراء المختلفة.

ومضوا يأخذون مذهب مالك أبا عن جد، وتعلقوا به ولم يرضوا بأي مذهب بديلاً منه. وأصبحت مدرسة مالك، بالقيروان، بعد موته، أقوى مدارس، في نواحي البلاد الإسلامية كلها وأشدّها استمساكاً بأرائه وتعصبا لها(34).

وهذا التحليل، من قبل حسين مؤنس، بناه على معطيات واقعية، وانتهى إليه بعد معاشة لنصوص مغربية هامة، وخاصة ما تعلق منها بكتاب رياض النفوس الذي قدم له بهذه الدراسة الذكية التي لا يمكن أن يستغني عنها أي دارس لتاريخ إفريقية في قرونها الأولى، في المستويين الفكري والاجتماعي، خاصة.

(33) مقدمة رياض النفوس، ص 10.

(34) ن . م، ص 12.

وفعلًا، لقد تمسك المغاربة بمذهب مالك، حتى رويت أعاجيب بشأنهم، في ذلك، أورد الخشني قصة عن هذا التعلق المفرط : عن أبي إبراهيم إسحاق بن النعمان الذي جمعه الطريق إلى الحجاز، برجل بغدادي، وكان إذاك يرى رأي مالك. فقال البغدادي : روي عن النبي ﷺ، فقال له ابن النعمان : فيما ذكر مالك لا يرى ذلك. قال له البغدادي: شأته وجوهكم يا أهل المغرب تعارضون قول النبي بقول مالك(35).

وبالرغم من كل ذلك فإن مذهب أبي حنيفة كان أكثر شيوعا من مذهب مالك، إلى أواسط القرن الثالث، ولم تتعادل الكفة أو تمل لصالح المذهب المالكي، إلا يوم أن تولى سحنون القضاء، فقد استطاع بعد أن أشاع هذا المذهب في دروسه وكتبه أن يدعمه بطريقة عملية، إذ أصبح صاحب سلطة.

سحنون بن سعيد (854/240777/160)

ولد أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، بمدينة القيروان، وتلقى دروسه الأولى بها، على أيدي علمائها من أمثال أبي خازجة والبهلول بن راشد، وأسد بن الفرات وابن أبي حسان الذي قال عنه سحنون : كنت أول طلبتي إذ انغلقت علي مسألة من الفقه أقصد ابن أبي حسان، فكأنما في يده مفتاح ما انغلق من مسائل الفقه.

وأخذ سحنون عن عالم تونس علي بن زياد، وكبير محدثيها عبد الملك بن أبي كريمة (ت 210/825). ثم رحل إلى المشرق سنة (804/188) فأخذ عن علماء الحجاز، والشام، ومصر روى الحديث عن سفيان بن عيينة وابن وهب والفقه عن أشهب، واختص بسماعه عن ابن القاسم إذ جمع عنه - المدونة، وأصلح على يديه الأسدية التي سمعها أسد عنه، فتراجع عن بعض أقواله فيها ونقحها، وسلمها إلى سحنون، ورجاه أن يعلم أسدا بهذه الإصلاحات والتنقيحات، ليعدل كتابه.

ثم رجع سحنون إلى القيروان سنة (807/191)، بمذهب مالك «واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف... فبارك الله فيه للمسلمين، فمالت إليه الوجوه وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد أمحى ما قبله، فكان أصحابه سرج أهل القيروان»(36). ويعتبر كتابه المدونة

(35) طبقات، ص 214.

(36) ابن فرحون، الديباج المذهب، القاهرة، 1351، ص 162.

الكبرى(37)، موسوعة المذهب المالكي الأولى، وثاني كتب المذهب، بعد الموطأ.
- وانتصب سحنون بالقيروان يعلم الفقه، فكثّر الآخذون عنه، وأصبحت
حلقة أكبر حلقة. وعد العلماء الذين تخرجوا عليه، فبلغوا نحو سبعمائة
عالم.

- قال أبو سعيد بن عمرو بن يزيد : «أول ما تعلمت من العلم مسائل
الصلاة من سحنون، ولئن قلت لك إن سحنونا أفقه من أصحاب مالك بن
أنس معلميه كلهم، إني لصادق»(38).

كان سحنون يجلس للسمع على باب داره، كما كان يعلم بمنزله
بالساحل(39)، وبذلك يتضح أن سحنونا كان لا يدخر وسعا في نشر العلم،
يؤخذ عنه أنى كان في المسجد، وفي داره، وحتى عندما يخرج لتفقد ضيعته
في الساحل.

وعرف سحنون بأخلاقه العلمية، إذا سئل وكان بحضرته من العلماء من
هو أسن منه أحال عليه(40).

وقال بعضهم : «كان سحنون يخرج علينا، ونحن ننتظره في مجلسه،
فوالله ما علمته يسلم في مجلسه علينا قط. وفي خلال ذلك يمشى بالأسواق،
فلا يمر بأحد إلا التفت إليه وسلم عليه، توقيرا للعلم وهيبة له، عند
طالبيه»(41).

وامتاز سحنون بذكائه ومثابرته على التعمق في المعرفة، ونشرها، في
فتاواه ودروسه التي كان يلقيها بمواظبة منقطعة النظير. وبذلك طبع
القيروان بعلمه وفقهه وجده وأسلوبه في الحياة.

وعلى الرغم من أنه تولى القضاء، في سن متأخرة، إذ كان قد جاوز
السبعين من عمره، فإن الفترة القصيرة - ست سنوات - من قضائه، تميزت
بنشاطه وعدله وتركيزه للمالكية إذ فرض المذهب وجعله أساسا للحكم لدى
القضاة، ومنع أصحاب الفرق والضلالات من نشر مقالاتهم ودروسهم

37 به 16 جزءا، طبع بالقاهرة بين سنتي 1323 هـ و 1324 هـ

38 المالكي، المصدر السابق، 1/254.

39 عياض، ترتيب المدارك، 2/594.

40 عياض، تراجم، ص 78.

41 محمد بن إدريس بن العباس، ولد بغزة وقيل باليمن، سنة (767/150). حمل إلى مكة وهو
صغير، وسكنها، ثم قدم مصر واستوطنها. روى عن مالك وكبار أئمة الفقه في عصره، وروى عنه
أحمد بن حنبل وكثيرون غيره.

بالمسجد الكبير، في القيروان. وباختصار، يعتبر من أكبر أعلام الفكر، في المغرب الإسلامي، وعمدة المذهب المالكي وإمامه، بالقيروان، خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري.

المذهب الشافعي :

لم تقتصر المدرسة الفقهية القيروانية على المذهبين الكبيرين : الحنفي والمالكي، بل إن مذهب الشافعي لما ظهر وانتشر، بلغ إفريقية، عن طريق بعض طلبة العلم، خاصة وأن هذا المذهب قد تركز، في مصر، وهي طريقهم إلى الحجاز، ثم أصبحت، في بعض الحالات، مقصدهم الأول، لما تجمع فيها كبار تلاميذ مالك.

دخل المذهب إفريقية وأصبح له أتباع قليلون، ولكنه لم يقبل من المالكية، وحصلت ضده ردة فعل عنيفة، تمثلت في كتب عديدة ألقت لمناقضته والرد عليه.

كان الشافعي في أول أمره مالكيًا، ثم انتقل للأخذ عن أصحاب أبي حنيفة، والتقى بأئمة المذاهب الأخرى كسفیان الثوري (ت 778/161) فقيه مكة وإمامها؛ وكالأوزاعي، إمام الشام؛ والليث بن سعد، في مصر، واستطاع بفضل ذلك أن يؤلف بين عناصر هذه المذاهب الاجتهادية المختلفة وأن يؤسس مذهبًا، اعتبر المذهب الفقهي الثالث، من بين مذاهب أهل السنة، وتميز خاصة برد إجماع أهل المدينة، وهو مدرك اختص به مذهب مالك عن غيره من مذاهب الأئمة.

ولما رد الشافعي، هذا الأصل المالكي، وهو من تلاميذ مالك، اعتبر ذلك خروجًا عن منهج شيخه، وتحديًا له. وفي الحقيقة سبق الشافعي، في هذا، إذ رد إجماع أهل المدينة، الليث بن سعد، ومحمد بن الحسن الشيباني.

— وبعد أن استقر الشافعي، بمصر، بدأت بينه وبين المالكية معارك ومناقشات لاذعة، تمثلت في الردود التي ألقت ضد مذهبه، فكتب محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المصري (ت 880/266) الرد على الشافعي فيما خالف فيه الكتاب والسنة (42)، كما قام بالرد على الشافعي أحمد بن مروان بن محمد المالكي المدري (ت 903/290) ويسمى كتابه :

(42) ابن فرحون، الديباج، ص 320.

«فضائل مالك والرد على الشافعي» (43).

وفي القيروان تمثل رد الفعل ضد المذهب الشافعي من قبل المالكية في وضع بعض الكتب كذلك، ألف محمد بن سحنون (ت 256/870) كتابا عنوانه «الرد على الشافعي»، وكذلك وضع يحيى بن عمر كتابا بنفس العنوان (44). ولأحمد بن طالب — القاضي القيرواني — كتب يرد فيها على الشافعي، لا بأس بها.

وتواصلت الردود على مذهب الشافعي، خلال القرن الرابع/العاشر ولعل أهمها ما كتبه أبو بكر محمد بن اللباد القيرواني (ت 333/944)، وهو بعنوان : كتاب الرد على الشافعي (45).

وبالاختصار كان أصحاب مالك ييغضون مذهب الشافعي (46). ولم ينتشر بالقيروان، أو يجد عناية من أهلها، ذكر المقدسي أنه كان يذكر بعضهم في مسألة، فذكر قول الشافعي، فصاح به مخاطبه : «اسكت من هو الشافعي؟ إنما كانا بحرين. أبو حنيفة لأهل المشرق؛ ومالك لأهل المغرب، أفنتركهما ونشتغل بالساقية؟» (47).

ومع ذلك وجد بعض علماء واتباع لهم، أعجبوا بمذهب الشافعي. وقد تزعمهم، بالقيروان، عبد الملك بن محمد الضبي، المعروف بابن البرذون، الذي كان كثير الاعتناء بهذا المذهب وكان يناظر في الفقه والجدل مناظرة لا بأس بها (48).

ومن علماء الشافعية، أبو عبد الله البجلي محمد بن علي، كانت له أوضاع في الفقه حسنة على معاني النظر، ككتاب الحجة في الشاهد واليمين، وهو أربعة أجزاء؛ وله كتاب في الرد على الشوكية. وكان جليل المقدار رئيسا من رؤساء العلماء، صحب المزني ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم. وعرض عليه الأمير الأغلب أبو العباس بن إبراهيم، القضاء فأبى.

ومن الشافعية أبو إبراهيم إسحاق بن نعمان — كان مالكا في بداية

(43) الخشني، طبقات، ص 135: ابن فرحون، الديباج، ص 28.

(44) الخشني، طبقات، ص 198.

(45) أنظر : (أبو بكر بن اللباد : كتاب الرد على الشافعي، تحقيق وتقديم : عبد المجيد بن حمدة، تونس، دار العرب، 1986).

(46) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 236.

(47) ن . م . نفس الصفحة.

(48) الخشني، المصدر السابق، ص 218.

حياته - لقي بعض كبار العلماء: بالمشرق، وسمع منهم، وسمع بالقيروان من يحيى بن عمر.

وممن ينسب إلى الشافعية ويعدّ من علمائهم أبو العباس بن السندي، لم يكن من أهل المناظرة، وقد عذب من قبل الشيعة(49). وأخيراً، تجدر الإشارة، إلى أن مذاهب أخرى، فقهية، دخلت إفريقية، كمذهب الأوزاعي، ومذهب الثوري، ولكنها لم تحظ بالانتشار، ولم يكن لها اتباع.

الصراع بين المذهبين الحنفي والمالكي

برزت المدرسة الفقهية القيروانية، بفرعيها الحنفي والمالكي، ونظرا إلى أن هذه المدرسة سنية، كان من المفروض أن لا يقع بين فروعها خلافات، إذ هي على اتفاق في الأصول، وهو الأهم، أما الفروع فإن الخلاف تولد فيها من الاجتهاد.

ولكن المذهبين الحنفي والمالكي كانا يتجنبان الخلافات لو أن السياسة لم تكن من ورائهما. نعم إن الاحناف وجدوا حظوة عند أولى النفوذ فقربوهم، وقدموهم للقضاء والفتيا، لأنهم وجدوا فيهم أهل تحرر في الرأي وتيسير في الاجتهاد.

أما المالكية، وقد اشتهر صاحب مذهبهم، مالك، ببعده عن أهل السلطة، وكرهيته لتولي القضاء لهم، فإنهم اقتدوا به، في ذلك، ونفروا من الاحناف، أتباعهم، فنشأت بين الفريقين أسباب الفرقة والخلاف. وتدخلت القوة التي كانت في جانب الاحناف فاضطهدت وتسببت في مأس كثيرة للمالكية. ونتج عن ذلك صراع مذهبي اجتهادي، داخل المدرسة الفقهية.

لقد كان الاحناف أكثر عددا من المالكية، في بداية الأمر، وكان القضاة غالبا ما يؤخذون من صفوفهم طيلة عهد الولاة أيام العباسيين بالخصوص. فلما جاء الأغالبة ولّوا الاحناف خطة القضاء، تقليدا للخلافة المركزية، ذلك أن بني العباس كانوا يفضلون مذهب أبي حنيفة. فقد ولّى الرشيد أبا يوسف يعقوب الكوفي - أكبر أصحاب أبي حنيفة - القضاء. وقرّب الأغالبة، الاحناف، لسبب آخر، سبق ذكره، هو التيسير في

(49) الخشني، المصدر السابق، ص 217.

الاجتهاد. تروي كتب الطبقات أن زيادة الله الأول احتار في مسألة شرب النبيذ، فطلب قاضيه أبا محرز وأسدا، ودعا بعبد الله بن أبي حسان - أحد الذين أخذوا عن مالك - واستفتاهم في شرب النبيذ. فأما أسد وابن أبي حسان فذكرا تحريمه؛ وأما أبو محرز - وهو حنفي - فقد ذهب إلى حليته.

والثابت المشتهر في هذا الموضوع أن شرب النبيذ محرم. وقد كتب عمر بن عبد العزيز رسالة في تحريمه (50) ومذهب مالك والشافعي وابن حنبل على تحريمه. أما أبو حنيفة فقد حل بعض الأنبذة كنبذ التمر والزبيب، إن طبخ أدنى طبخ، وشرب منه قدر لا يسكر.

ولا شك في أن تحليل النبيذ، من قبل أبي محرز، كان حافزا للأمرء على زيادة التعلق بالاحناف، إذ وجدوا فيهم ما يناسب ميولهم، ويلبي شهواتهم. وقد أدت هذه المواقف إلى ردود فعل من قبل المالكية، واستغل الاحناف نفوذهم وقربهم من الأمراء فراحوا يؤلبونهم عليهم.

وبرزت بين هؤلاء، المناقشات التي كانت في بدايتها رصينة، عن طريق المناظرات الفقهية، التي لو اقتصر عليها لادت إلى إثراء المسائل العلمية بزيادة التعمق في بحثها، والتأصيل لها، لأن الخلافات، في هذا المجال، محدودة، عندما تثمر نتائج تراعي الواقع المتطور، ويمكن تطبيقها والافادة منها؛ لا أن تبقى في مجال التصور والتنظير، والتشبث المقيت بالآراء لأنها منسوبة لهذا أو ذاك من الأئمة المجتهدين.

لكن الخلافات لم تسلك هذا المنهج، وتنكبت مجال المناقشات العلمية، واتخذت شكلا آخر هو أقرب إلى الصراع والعنف منه إلى العلم، فاحتدمت وظهر الصدام والتعذيب والتقتيل.

فلما تولى ابن أبي الجواد القضاء (51)، وهو حنفي ومعتزلي في نفس الوقت، قام يلاحق المالكية. من ذلك موقفه من سحنون لما توارى على القول بخلق القرآن (52)، فإنه لما استدعي وحضر لدى الأمير، دون شك، ليحاكم، كان رأي ابن أبي الجواد، بعد أن أنكر سحنون القول بخلق القرآن، أن يقتل ليكون عبرة لغيره. وقال أتباع القاضي: نعم ليقطع أرباعا ويجعل كل ربع بموضع من المدينة، ويقال هذا جزاء من لم يقل بكذا. وكان رأي بعضهم

(50) ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة، د. ت، 411/3.

(51) الخشني، المصدر السابق، ص 236.

(52) ن. م، ص 227.

حبسه في بيته ومنعه من التدريس والافتاء، وهو أبلغ في إشقائه وتعذيبه. واختير هذا الحل الأخير(53).

ولو استمع الأمير لقول ابن أبي الجواد لذهب سحنون - أكبر فقهاء المالكية بالقيروان، في النصف الأول من القرن الثالث الهجري - ضحية، كما ذهب علماء كثيرون.

ولما تولى سليمان بن عمران(54) قضاء القيروان، وهو حنفي، خافه يحيى بن عمر - أحد علماء المالكية - فاخفى بسوسة(55)، خوفا من ملاحظته، ذلك أن يحيى قال ذات يوم: «من كان ها هنا من أهل العراق فليقم عنا»(56). وكذلك حاول سليمان توريط عبد الله بن أحمد بن طالب، عند الأمير، وذلك عندما كان ابن طالب قاضيا(57).

وأكبر نصيب من الاضطهاد والتعذيب، تعرض له المالكية، كان على يد ابن عبيدون الحنفي، السذي تولى القضاء بين سنتي (275/278/888/891). كان متقنا لمذهب أبي حنيفة، يصفه الاحناف بالذكاء وحسن التصرف ويفخرون به وعليه يثنون، في حين ينسب إليه المالكية، الغفلة وقلة الحصافة.

ولاه إبراهيم بن أحمد القضاء، وكان معجبا به، حتى قال فيه: «حسدني أهل القيروان في ابن عبدون»(58)، ولما تفتن إلى أعماله الفظيعة عزله وقال: «لو ساعدته لجعلت له مقبرة عن حدة»(59).

وفي أيام توليه القضاء، استطال على المالكية، فنكل بجماعة منهم، وطوف بهم، منهم أحمد بن معتب، وإبراهيم المعروف بالدمني، وأحمد بن عبدون الأسدي العطار، وابن المدائني، وأبو القاسم مولى مهرية(60). وخشي يحيى بن عمر بطش هذا القاضي، فتوارى عنه(61).

53) الدباغ، المصدر السابق، 61/2.

54) ولاه سحنون واشترط عليه الإفتاء بمذهب مالك. (الخشني، طبقات، ص 180).

55) المالكي، المصدر السابق، 404/1.

56) الدباغ، المصدر السابق، 161/2.

57) عياض، ترتيب المدارك، 203/3.

58) الخشني، المصدر السابق، ص 187.

59) ن . م، نفس الصفحة.

60) ن . م، ص 229.

61) ن . م، نفس الصفحة.

وأفزع موقف لابن عبدون كان من ابن طالب القاضي المالكي الذي عزل وتولى هو مكانه. فقد لاحظ ابن طالب على الأمير إبراهيم الميل إلى الفسوق والفجور، فقال: «ما هذا يؤمن بالله» أو قال : هذا فعل الدهرية... وبلغ كلامه إبراهيم(62)، فحقد عليه، وعزله، وتولى ابن عبدون مكانه، وهو يعرف عصبية لمذهبه الحنفي وبغضه للمالكية. ثم أمر الأمير بإحضار العلماء ودعا ابن طالب من سجنه، لتقع مناظرته، وجلس بالقرب منهم لسمع كلامهم. فأمر القاضي ابن عبدون العلماء بتتبع أفعال ابن طالب ومناظرته، ليفضحه على رؤوس الناس. وحاول بكل الوسائل توريثه. وعلى الرغم من دفاع ابن طالب وحجته، انتهى الامر بقتله في السجن(63).

وكان الحنفية ينتهزون الفرص للتشنيع بالمالكية، وهذا ما فعلوه مع ابن أبي حسان، لما قال للأمير : «العفو مفسدة، ولن يلدغ المؤمن من جحر مرتين»(64) في حين نصحه أغلب العلماء بالعفو عن الجند الذين ثاروا عليه، فمضى الحنفية يحرضون عليه العامة والجند حتى ذهب بعض من كتب عنه علما، يقطع أوراقه، ويرمي بها على باب دار ابن أبي حسان(65). وانتهب الجند منازل هذا العالم ولم يتركوا بها شيئا، وطلبوه، فاستخفى(66).

وكان الحنفية يتسببون غالبا في الخلافات، فقد هدم القاضي الحنفي، الذي تولى بعد سحنون، البيت الذي بناه هذا داخل المسجد، واتخذة مجلسا للقضاء، بغية الابتعاد عن شغب الناس. فكان هذا البيت يبنيه القاضي المالكي إذا تولى، ويهدمه الحنفي عندما يتولى القضاء.

ويمكن التساؤل، في مثل هذه الحالات من الاختلاف في الرأي، الذي يتجسم خاصة، عندما تؤول السلطة إلى أحد طرفي الصراع، هل كان المالكية يقومون برد فعل عنيف، ويضطهدون خصومهم؟

لقد عرف المالكية على العموم بتسامحهم، ولو أن بعضهم يرى أن ابن أبي الجواد عذبه سحنون بسبب مخالفته لمذهبه، وقوله بخلق القرآن؛ وكذلك اشتراطه على سليمان بن عمران الحنفي الافتاء بمذهب مالك(67)،

(62) ن . م ، 220.

(63) عياض، المصدر السابق، 207/3.

(64) عياض، تراجم، ص 74.

(65) ن . م ، ص 75.

(66) ن . م ، ص 74.

(67) الدباغ، المصدر السابق، 99/2.

ولكن هناك رواية أخرى تبين تسامح سحنون وعدم فرضه القضاء بمذهبه، على سليمان: جاء أهل باجة يشكون سليمان بن عمران قاضيههم إلى سحنون، وكان هو الذي ولاه عليهم، فقال لهم: ما تقولون فيه؟ قالوا: إنه يحكم علينا بمذهب أبي حنيفة. فقال سحنون: ما قدمته عليكم، إلا وأنا أعلم أنه يحكم بمذهبه.

ويدعم هذا ما ذكره عياض الذي روى أن سليمان نصح الأمير الأغلبي بتولية سحنون القضاء. فلما اجتمع سحنون بسليمان قال له: ابتليتني، فوالله لأبتلينك. قال سليمان: فولاني القضاء وقال لي: عليك بالحجازية. فقلت: القاضي مفت. بما كنت أفتي به، فبه أقضي. فسكت عني(68).

وأفضت المعركة بين الحنفية والمالكية إلى تقسيم أهل القيروان إلى فريقين: فريق الأحناف ويدعمهم، غالبا، أصحاب السلطة؛ وفريق المالكية وقد انضم إليهم الشعب(69) والتف حولهم.

كما أن هؤلاء اعتصموا بالمالكية، لوضوح المذهب وبعده عن التعقيد والتخاريج المشبوهة، فاتفق بذلك مع طبيعة العرب الكثيرين، القائمين بإفريقية، والذين في أغلبهم هربوا من ظلم الأمويين والعباسيين؛ ومع طبيعة البربر، الذين التزموا، غالبا، بتقليد هؤلاء، في أمور دينهم ودنياهم.

ورأى المالكية أتباعهم يتزايدون يوما بعد يوم، فقال أحدهم، وهو أبو خارجة، فيما رواه عنه عيسى بن مسكين: «لا تمر الليالي والأيام حتى تمنحي كتب أبي حنيفة من إفريقية(70)».

وتفطن الأمراء الأغالبة إلى هذه القوة الشعبية المعارضة، فنزلوا تحت طلبها، وكلفوا المالكية بالقضاء، مثلما وقع بالنسبة لحماس بن مروان. لكن هذا العمل جاء متأخرا بعد أن تمكن بعضهم من قلوب الناس.

والخلافا المذهبية الفقهية، كانت أحد الأسباب الرئيسية في انهيار الدولة الأغلبية، إذ عاشت غريبة في القيروان، وذلك لاعتمادها على الأحناف دون المالكية. ولذا تقاعس الشعب عن تأييدها لما أحست بخطر الشيعة(71).

وجاء الشيعة إلى القيروان فأصبح للمالكية عدو أشد خطرا من الأحناف.

(68) ترتيب المدارك، 2/ 598.

(69) Talbi Mohamed, l'émirat Aghlabide, Paris 1966, p. 223.

(70) المالكي، المصدر السابق، 1/ 165؛ عياض، تراجم، ص 81.

(71) حسين مونس، مقدمة رياض النفوس، ص 14 - 15.

وفي البداية سقط على أيدي الشيعة الأحناف والمالكية سواء بسواء. فقد قتل برقادة في سنة (297/918) أحمد بن يحيى بن طيب المتطبب الفقيه الحنفي(72). ثم قتل الفقيهان المالكيان : أبو إسحاق إبراهيم المعروف بابن البرزوي وأبو بكر بن هذيل.

وتجدر الإشارة بعد كل الذي تقدم، إلى أن هيمنة المذهب المالكي، على المجتمع القيرواني، في النصف الأول من القرن الثالث طبعت ثقافته بطابع خاص، أبعدھا بصفة عامة، عن التأويل، مما فوت على هذه الثقافة فرصة الإسهام الكبير، في العلوم العقلية.

ولعل لاكتفاء الأفارقة بالأخذ عن سحنون ورواية كتبه من بعده، ضلعا كبيرا في ذلك. على أن الخلافات المذهبية، وشيوع الجدل بالقيروان، في حلقات المعتزلة خاصة، دفع ببعض تلاميذ سحنون إلى الميل إلى هذا الفن الجديد - الجدل - فأخذوه، ونبغ فيه بعضهم. ولولا ذلك لبقى المذهب جامدا، ولما استطاع أن يصدّ هجمات الشيعة لما انتصبوا بالقيروان يروجون دعوتهم بالقوة تارة، وبالاتقان والحجة، أخرى.

وبرز في هذا الجو، أحد تلاميذ سحنون، وهو أبو عثمان سعيد بن الحداد، فأتقن علم الجدل حتى عدّ إماما فيه، ثم مضى يناظر مخالفه ويرد عليهم بالقول والكتابة، ولهذا اعتبر مجددا للمدرسة المالكية القيروانية، فقد اعتمد شيخه سحنون لدعم المذهب المالكي طريقة نشره في دروسه وكتبه، ثم بنفوزه، أيام توليه القضاء. أما ابن الحداد فقد انتهج طريقة أخرى جديدة، تمثل التطور الذي حصل لهذا المذهب لما مال بعض أتباعه إلى تحصيل العلوم العقلية، واهتموا بفن الجدل.

وبهذا تكون المدرسة الفقهية القيروانية، قد احتضنت أبرز المذاهب الاجتهادية، في القرن الثالث/التاسع، واختارت منها مذهباً لم تتجاوزه إلى غيره، وجدت فيه مبتغاها، فتمثلته، وانفعلت به، وانعكس ذلك على المجتمع القيرواني، فكان مالكيًا في كل شيء، في فكره، ونمط عيشه، وسلوكه...

ومن هنا سوف لا يستغرب تعلق القيروانيين بمذهبهم، والدفاع عنه، والانتصار له بكل ما أوتوا من وسائل فكرية ومادية، حفاظا على شخصيتهم، وذودا عن ثقافتهم الدينية المتميزة.

(72) ابن عذاري، البيان، 1/161.

كنفزاوة والجريد وجربة... ووجدت هنا اتباعا، وكان بعض شيوخهم من إباضية وصفرية، يلقون دروسهم حتى في جامع القيروان، كغيرهم من أصحاب المذاهب والمقالات، إلى أن منعهم سحنون فيمن منع من مخالفي الجماعة، بعد توليه القضاء.

2. المدرسة العقائدية

جَدَّتْ خلافات حول مسائل عقائدية متعددة خاصة إثر دخول العناصر الأجنبية المنحدرة من الحضارات القديمة، في الاسلام، بفضل الفتوحات الواسعة المتلاحقة. واتخذت هذه الاختلافات أشكالا ومحاوِر وانتَهت إلى اتجاهات أهمها : القدرية بزعامة معبد الجهني (ت 700/81) وغيلان الدمشقي (ت بعد 723/105) الذين تبعهما كثيرون، وهم القائلون بأن الإنسان حر في أفعاله، خاضع لإرادته الذاتية، مسؤول عن كل ما يفعل وما يترك، وهذا معنى الحساب، يوم القيامة. وتطور هذا الاتجاه واتخذ تسمية أخرى أصبحت مشهورة باسم المعتزلة قيل إنها نشأت حول حلقة الحسن البصري (ت 729/110) لما اعتزل درسه تلميذاه: واصل بن عطاء (ت 749/131) وعمر بن عبيد (ت 763/145) إذ اختلفا معه حول الحكم على مرتكب الكبيرة، فخرجا برأي لم يسبقا إليه، وهو جعله في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر.

ومقابل المعتزلة - القدرية المتطورة - برز اتجاه آخر يرى أن جميع أفعال العباد مخلوقة لله، والعبد مجبور وليس مخيرا، وإنما تنسب الأفعال إليه مجازا. وسمي أصحاب هذا الاتجاه بالجبرية، وكان على رأسهم جهم بن صفوان الخراساني (ت 746/128).

وخاض بعضهم في مسألة الإيمان، فكان ظهور المرجئة القائلين بأنه يكفي في الإيمان الاقرار والقول به، وأما الأعمال فيرجى النظر فيها إلى يوم الحساب.

ثم ظهر اتجاه توفيقى بين التطرف في نسبة الأفعال إلى العباد، بقدرة ذاتية مطلقة، وبين سلبهم من أي حرية أو قدرة على الفعل، مما يتناقض مع مفهوم التكليف وتحديد المسؤولية الإنسانية في السعي الدنيوي، وإظهار الفرد وكأنهما قد حكم عليه جبرا بالسعادة أو الشقاء، بدخول الجنة أو

النار، إذ لا حول له ولا قوة ولا قدرة... فكان لأبي الحسن الأشعري (ت 941/330) - الذي تربى في أحضان الاعتزال مدة أربعين سنة - فضل الاهتمام إلى هذا المنهج التوفيقي الذي لا يسلب فيه الإنسان من إمكانية الفعل وكسبه، ولا يكون له فيه سلطان مطلق، إذ الحاكم المطلق، والسلطان الأكمل، ورب الأمر كله، هو الله الواحد الأحد.

وبذلك قضى الأشعري ثم الماتريدي (ت 944/333) - من علماء أهل السنة - على القدرية والجبرية معا، ووضعوا حدا لغلو المعتزلة في تشبيثهم بحرية الفعل.

- فأي صدى لهذه الاتجاهات العقائدية المختلفة التي ظهرت بالشرق، في المجتمع القيرواني، خلال القرن الثالث/التاسع؟ خاصة وأن أغلب ما يجد من آراء ومذاهب في المشرق ينتقل إلى إفريقية والمغرب، ويتم في أغلب الأحوال بطريقين ثابتين؛ أولهما الهجرة إلى المشرق طلبا للعلم أو قصد الحج من قبل الأفارقة والمغاربة. وثانيهما : الهجرة العكسية من قبل بعض علماء المشرق وطلبة العلم، في اتجاه المغرب الإسلامي - إفريقية والمغرب الأوسط والأقصى والأندلس - لتبادل الرأي أو الاستقرار أو هروبا من الاضطهاد.

لقد تناولت بدراسة مفصلة كل ما يتعلق بالمدارس الكلامية التي ظهرت بإفريقية(73) منذ مطلع القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الرابع الهجري، على أيدي داعيي الخوارج سلمة وعكرمة، وما كان من أمر الاعتزال وانتشاره في نهاية القرن الثاني، بإفريقية، حيث أصبحت له دولة فيها، لما اتخذ مذهباً رسمياً لدى بعض خلفاء العباسيين وخاصة المأمون، وما لحق بعض علماء السنة من اضطهاد بسبب إنكارهم القول بخلق القرآن، كسحنون بن سعيد (ت 854/240) أكبر فقهاء إفريقية والمغرب، في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، ومن أعظم فقهاء المذهب المالكي في شتى عصوره وأمصاره.

لقد كان للمعتزلة، في هذه الفترة نشاط كبير تمثل خاصة في نشر دعوتهم ومناظرة مخالفينهم من أهل السنة والاباضية وغيرهم، ومحاولة السيطرة على الموقف الديني، بكل الوسائل.

ولما انهارت دولتهم في المشرق، بتولي المتوكل العباسي (ت 861/247)

(73) انظر: عبد المجيد بن حمدة، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، تونس، مطبعة دار العرب، 1986.

ضعف أمر المعتزلة بالقيروان، ورفع الأغلبية المحنة عن علماء السنة.

كما تضمنت الدراسة بحثاً مفصلاً عن التشيع وبذوره الأولى، بإفريقية، ثم انتشاره، بقوة على يد أحد كبار دعاة الشيعة الاسماعيلية - أبي عبد الله الداعي (ت 909/297) - الذي تمكن من احتلال القيروان وإقامة دولة الشيعة بها سنة (908/296) تلك الدولة التي أصبحت خلافة أخرى - ثالثة - في العالم الإسلامي، بالإضافة إلى الخلافة العباسية ببغداد، والخلافة الأموية بالأندلس.

والجدير بالملاحظة أن علماء القيروان، بداية من فجر الثاني الهجري، إثر ظهور الدعوات والبدع، وقفوا في وجه كل صاحب هوى ونزعة داعية إلى التفرق. لقد كان للبهلول بن راشد وعبد الله بن عبد الله المهري، وعبد الله بن فروخ الفارسي وغيرهم، مواقف ثابتة احتفظت كتب الطبقات بإشارات وبيانات عنها، كما كان لسحنون وابنه محمد مواقف حاسمة من هؤلاء، حيث منع سحنون الإباضية والصفورية وأصحاب الأهواء من الجلوس للتدريس بالمسجد الجامع في القيروان، وحكم بتشريدهم، وأدب من خالف أمرد وأطافهم وتوب جماعة منهم(74).

وامتنع العلماء من الصلاة على كل من اشتهر بالاعتزال، حتى يتعظ الناس ويتجنبوا الاتصال بهم والأخذ عنهم. ذكر المالكي أن سعيد بن الحداد حكى أن أباه محمداً مرّ ذات يوم، بسقيفة معتزلي وكان حوله جمع يتناظرون، فوقف يستمع إليهم، فبلغ ذلك البهلول بن راشد، فلما جاءه قال له مغضباً: «يا محمد بلغني أنك مررت بسقيفة العراقي فوقفت إليهم تسمع إلى مثل هذا، فلا تقربني»(75).

وقيل إن البهلول بن عمر التجيبي لما مات رماه الناس بالحجارة وصاحوا: الوادي، الوادي(76)... وبذلك كان كل من يظهر عليه شيء من الزيغ، أو أي ميل إلى المشبهة أو غيرهم، ممن خالفوا رأي الجماعة، ينظر إليه بعين الريبة، ويهجر، من قبل الخاصة والعامة، لذا لم يغفل أصحاب الطبقات عند الترجمة للعلماء، عن التنصيص على من رمى منهم بإرجاء أو تشبيه أو اعتزال؛ كما كان بعضهم يشير إلى من لم يعرف بشيء من ذلك،

(74) المالكي. رياض النفوس، 1/276-277.

(75) ن. م. 1/134.

(76) أبو العرب. طبقات، ص 153.

بقوله: «وما سمعت أحدا يذكره بسوء» (77).

وفي هذا أمانة وتحري في نقل الأخبار من قبل المترجمين، وإشارة إلى التماسك الاجتماعي - إحدى خصائص المجتمع الإسلامي البارزة - وإلى سيطرة الاتجاه السني في البيئة المجتمعية القيروانية وإلى أهمية الرأي العام القيرواني وقوته وضغوطه. فبالإضافة إلى تخوف العامة من حكم العامة عليهم، كان هناك تحسب من أصحاب السلطة إذ قدّروا لهذا الرأي حسابا، ونزل بعضهم عند رأي الجمهور لما أنكروا على القاضي مروان بن أبي شحمة (ت 240/854) نحلته المبتدعة - قوله بالتشبيه - وجفوته وغلظته في التعامل معهم، فأقاله (78).

على أن هذه المواقف كلها لم تمنع، كما تقدمت الإشارة، من ظهور اتباع لأكثر الفرق السياسية والعقائدية التي سادت المشرق، في القرن الثالث/التاسع، بالقيروان فشاعت فيها آراء الخوارج والشيعة والمعتزلة، وانتشرت عن طريق الدعاة وحركة الجند الوافدين من المشرق لمناصرة ولاية الأمويين، ثم العباسيين. مما دفع ابن فروخ إلى أن يكتب شيخه مالكا بحقيقة الوضع الذي أصبحت عليه إفريقية، قائلا: «إن بلدنا كثير البدع» (79) كما أعلمه بأنه ألف كلاما في الرد على المبتدعة، فأجابه مالك برسالة، محذرا إياه من مغبة التناظر والرد على هؤلاء، لأنه على يقين من قوتهم في فن المناظرة، قال له مالك: إنك إن ظننت ذلك بنفسك، خفت أن تزل أو تهلك. لا يرد عليهم إلا من كان ضابطا عارفا بما يقول لهم، ليس يقدرون أن يعرجوا عليه. فإن هذا لا بأس به وأما غير هذا فإنني أخاف أن يكلمهم فيخطيء فيمضوا على خطئه، أو يظفروا منه بشيء فيتعلقوا به ويزدادوا تماديا على ذلك» (80).

وهكذا نبه مالك ابن فروخ على الرغم من أنه يرى فيه فقيه أهل المغرب (81) وأشفق «أن يكون ذلك سببا لإظهار طريقة الجدل بإفريقية فيؤدي ذلك إلى اسباب يخاف من غوائلها، ولا يؤمن من شرها، فأراد حسم الباب» (82).

(77) ن . م، ص 198.

(78) ن . م، ص 201.

(79) المالكي، المصدر السابق، 1/114.

(80) ن . م، نفس الصفحة.

(81) ن . م، 1/113.

(82) ن . م، 114.

وكانت المسائل التي تثار في المشرق، تصل إلى إفريقية وتثار فيها بعد مدة وجيزة. ذكر أن ابن الأشج - أحد شيوخ المعتزلة بإفريقية - لما رجع من رحلته إلى العراق، دخل عليه شباب القيروان فسألهم عما يتكلم فيه أهل القيروان، اليوم، فقالوا له: في الصفات والأسماء. فقال لهم: تركت أهل العراق يتكلمون في مسألة القدر والتوعد والوعيد(83).

وفشا القول بالأرجاء، في القيروان، فرمى به بعض العلماء كيحيى بن سلام (ت 815/200) فصاح مبرئاً نفسه بقوله: ورب الكعبة ما عبدت الله على شيء من الأرجاء قط(84). كما شاع التشبيه، في عهد إبراهيم الثاني - الأغلبي - بين سنوات (261 - 289/874 - 892) وأثيرت مسألة رؤية الله، التي ينكرها المعتزلة؛ ويقول بها أهل السنة عملاً بصريح قوله تعالى: «وجود يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة» (القيامة، 22-23). وقد حكى المالكي ما وقع في درس أسد بن الفرات، ذات يوم، لما كان يقرأ عليه تلاميذه شيئاً من تفسير المسيب بن شريك. فلما بلغوا آية سورة القيامة، المثبتة للنظر إلى الله، تكلم سليمان الفراء (ت 882/269) - معترلي - وكان في مجلس، فأنكرها وصاح: من الانتظار، فثارت ثائرة الشيخ، واستقبل الفراء بنعله وضربه(85).

- ولم ينحصر الجدل في مجالس الشيوخ وطلبة العلم، بل دخل قصور الأمراء الذين عقد بعضهم مناظرات بين أصحاب المذاهب المختلفة، واستمع إلى مقالاتهم، واشترك فيها. وكان عبد الله بن إبراهيم الثاني، من أشهر الأمراء اهتماماً بالجدل، وكان له نظر جيد(86).

وبذلك أصبح في القيروان جماعات متعددة، تخوض في المسائل العقائدية المختلفة، وتنضوي تحت اتجاهات رئيسية، نشأت في المشرق وتطورت وانتقلت إلى إفريقية في منظومات فكرية محددة السمات.

وأهم هذه الجماعات وأكثرها أتباعاً، جماعة أهل السنة، وهم يضمون المالكية والحنفية الأوائل، لأن الجيل الثاني تبني مذهب الاعتزال وأصبح من أنصاره. وكان من أشهر الأحناف المعتزلة ابن الأشج والفراء، وابن القيار (ت 903/290).

83 الخشني. طبقات، ص 220.

84 أبو العرب. طبقات، ص 113.

85 المالكي. المصدر السابق، 1/182.

86 ابن الأبار. الحلة السرياء، بيروت، 1381/1962، ص 263.

أما أهل السنة فأشهر شيوخهم في الجدل والمناظرة محمد بن سحنون (ت 870/265) «كان يحسن الحجة والذب عن السنة والمذهب» (87)؛ وعبد الله بن طالب القاضي (ت 889/275) كان ولوعا بالكلام، يجمع بين أهل المناظرة في مجلسه، وربما أباتهم عند نفسه» (88)؛ وأبو بكر القمودي الذي كان بصيرا بوجوه الكلام، عارفا بأبواب المناقضة، متدربا في المعارضة (89) ناظر الشيعة إثر دخولهم إلى القيروان فأفحمهم، لكنه خاف سطوتهم، آخر الأمر، فانضمم التقيّة إليهم، وقد يكون من باب التقيّة. غير أنه في موقفه هذا لم يأتس بشيخه — أبي عثمان سعيد بن الحداد القيرواني — الذي يعتبر، بحق أشهر المتكلمين الأفارقة، في القرن الثالث/التاسع، وأوسعهم دراية وتبصرا بفني الجدل والمناظرة، وأكثرهم جرأة وشجاعة، لم يرهّب الشيعة، على كبر سنه، وناظرهم فأفحمهم، وخشيه هؤلاء فكانوا يستكتمونه ما يدور بينهم في مجالس المناظرات.

3. المدرسة العلمية

أسس بيت الحكمة، في بغداد، على أيام هارون الرشيد (90) أو ابنه المأمون (91)، ويعتبر أول مجمع علمي استحدث في الإسلام (92). وجلبت إليه الكتب العديدة وانتصب داخله النساخون، والمترجمون والمؤلفون. وقد جعل المأمون على رأس بيت الحكمة حنين بن إسحاق وكلفه بالنقل.

ولما ازدهر العلم على أيام الأغالبة، أراد الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلب (93) أن يواكب الحركة العلمية بالشرق، فأسس بيت الحكمة بإفريقية، جعله مماثلا في التسمية والمهمة. لبيت الحكمة البغدادي. وكان هذا الأمير مولعا بالعلوم الرياضية والحكمية كثير المصاحبة للعلماء، يتقن اللغة اللاتينية، وإن اشتغاله بالفلسفة وما يتبعها من الفنون، حمله على إنشاء

(87) عياض، ترتيب المدارك، 3/104.

(88) الخشني، طبقات، ص 198.

(89) ن. م. 214.

(90) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، ط 3 1966 - ص 59.

(91) شاريف، الفكر الإسلامي: منابعه وآثاره، تعريب أحمد شلبي، القاهرة، 1962، ص 43، دي لاسي

أوليري، علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، تعريب وهيب كامل، القاهرة، 1962، ص 226-227.

(92) شاريف، المرجع السابق، ص 43-53.

(93) تاسع أمراء الدولة الأغلبية، تولى حكم إفريقية بين سنتي (261/874-289/902).

هذه الدار(94).

وجلبت الكتب من المشرق إلى بيت الحكمة. واستدعي المترجمون من صقلية وقد أصبحت تحت النفوذ الأغليبي - وهم قساوسة، أوتي بهم لأن الثقافة عند الافرنج في تلك العهود، كانت مقصورة على الرهبان دون سواهم(95). ودعي علماء مختصون في سائر العلوم من العراق ومن مصر، واتفق معهم بما يرضيهم(96).

وقد كان تأسيس بيت الحكمة حدثا عظيما، في مجال الثقافة، بالقيروان، ذلك أن سيطرة المذهب المالكي، وتخلي أبناء القيروان عن الرحلة إلى المشرق للاستزادة من طلب العلم، إذ اكتفوا بالأخذ عن سحنون وأصحابه - ثم التخوف من كل جديد، بسبب ما خبروا من اختلاف في الآراء والمذاهب لدى أهل الفرق؛ كل ذلك جعل القيروانيين يتأخرون في أخذ العلوم العقلية التي شاعت بالمشرق وازدهرت. فكان لتأسيس بيت الحكمة دوره الفعال إذ سد النقص الذي أصاب الثقافة بالقيروان؛ فأصبحت الكتب تترجم داخله، وتدرس به العلوم من فلك ورياضيات وحساب وفلسفة وطب؛ وتنسخ وتشرح، تحت رعاية الامراء والعلماء(97).

وعلى الرغم من أن البحث الذي كتبه حسن حسني عبد الوهاب عن بيت الحكمة يعتبر مفيدا جدا إلا أنه لم يقدم فيه معلومات مقطوعا بصحتها، وإنما كان يستنتجها من فرضيات بناها بفضل واسع اطلاعه، في هذا المجال، إذ تدرس بتاريخ الحضارة العربية في إفريقية وأصبح فيه عمدة، بعد أن قضى قرابة خمسين سنة منقبا، جامعا، مقارنا، مستنتجا.

ويمكن اختصار استنتاجاته، في هذا الموضوع، بأن بيت الحكمة كان مقاما برقادة - المدينة الاميرية - في حين يرى عثمان الكعاك الذي اهتم هو كذلك ببحث موضوع بيت الحكمة، أن مكانه على الشارع الكبير، بجوار جامع القيروان.

ومما استنتجه حسن حسني عبد الوهاب أن بيت الحكمة ربما تركب من مجالس (قاعات) فسيحة، عددها أربع أو خمس، قد اتصل بعضها ببعض، وفي إحدى هذه القاعات مكتبة منضدة، في خزائن من خشب، في كل خزانة

(94) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، 1/196.

(95) ن . م، 1/203.

(96) ن . م، 1/196.

(97) مراكز الثقافة في المغرب، القاهرة، 1958، ص 21.

كتب مختارة نسخت على الرق أو على الكاغذ الذي كان ثميناً ونادراً لحدائثة ظهوره، بإفريقية في ذلك العصر(98).

وكان لبيت الحكمة أقسام، منها قسم خاص بالترجمة عن اللغة اللاتينية والبربرية؛ وقسم لتعليم الطب بإشراف أحمد بن الجزار القيرواني (ت 369/980) - أشهر طبيب ظهر بالقیروان - وقد صنف كتباً عديدة في الطب منها : الاعتماد في الأدوية المفردة، ورسالة في أبدال الأدوية؛ وزاد المسافر وقوت الحاضر؛ وطب المشائخ وحفظ صحتهم؛ وكتاب في الكلى والمثاني(99).

كما كان بيت الحكمة قسم لتدريس الصيدلة، تخرج منه صيادلة فتحوا دكاكين؛ وكان به قسم لتعليم اللغات، يعلم فيه علم اللغات السامية المقارن، يدرس به دونش بن تميم(100).

وجمع الأمراء الأغالبة مشاهير العلماء في بيت الحكمة وأثاروا بينهم النقاش في المسائل الكلامية، ولا سيما بين أهل السنة ومنهم المالكية خاصة، وبين العراقيين الذين اشتهر أكثرهم بالاعتزال.

ويبدو أن المناظرة التي أوردها المالكي، في رياض النفوس، حول قضية خلق القرآن، كانت قد دارت في بيت الحكمة، بين ابن الحداد، من أهل السنة. وبين بعض العراقيين - المعتزلة - كابن الأشبح وغيره، بحضور القاضي الحنفي آنذاك : عبد الله بن هارون الكوفي. وكان ذلك بإشراف الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد.

ولم أعثر على نصوص تشير إلى من ترأس بيت الحكمة أيام إبراهيم بن أحمد وأبي العباس. أما على عهد زيادة الله الثالث فقد ترأسه أبو السير إبراهيم بن محمد الشيباني، المعروف بالرياضي، الكاتب (ت 298/911)، وهو أصيل بغداد تتلمذ بها على كبار علمائها أمثال الجاحظ والمبرد وثلعب ولقي أبا تمام والبحري وعندما جاء إفريقية اتخذها أميرها لرئاسة ديوان الرسائل(101).

98) ورقات، 1/ 192 فيما بعدها.

99) أحمد بن الجزار القيرواني، سياسة الصبيان وتدريبهم، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس 1968، ص 36 فما بعدها.

100) عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 24.

101) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق 1/ 244-245.

ومن أشهر علماء بيت الحكمة إسحاق بن عمران (ت 294_295/307_908) وهو طبيب كبير، جاء من بغداد بدعوة من الأمير إبراهيم الثاني سنة (224/887) فكان له فضل نشر العلوم الطبية والفلسفية بالقيروان. أخذ عنه الفلسفة والطب، زياد بن خلفون، وأبو بكر محمد بن الجزار، وأبو سعيد الصفيل وغيرهم. ولم يبق من مؤلفاته الكثيرة إلا كتاب واحد (المالنجوليا (Mélancolie) في وصف أمراض الوسواس (102).

ومن أكبر علماء بيت الحكمة إسحاق بن سليمان الاسرائيلي الذي جاء افريقية صحبة رسول زيادة الله الثالث، لخدمته، وهو ممن اشتهر بالطب وتلمذ برقادة للطبيب إسحاق بن عمران، ولازمه في بيت الحكمة وتلمذ عليه أحمد بن الجزار. وإثر حلول الشيعة بالقيروان لازمهم الاسرائيلي ووجد لديهم حظوة.

ومن علماء بيت الحكمة زياد بن خلفون وابن ظفر، القمودي، المشهور بالفيلسوف صاحب ابن الحداد مدة طويلة.

وممن كان يشارك في المناظرات والمجالس، ببيت الحكمة، ابن الحداد وابن طالب وابن عبدون؛ وكذلك من رجال بيت الحكمة الشاعر بكر بن حماد....

وبعد أن دخل الشيعة الى القيروان، نقلوا بيت الحكمة أولا إلى عاصمتهم الجديدة — المهدية — ثم لما انتقلوا إلى مصر، أخذوا معهم قسما هاما منه، فكان النواة الأولى لمكتبة دار العمل وتركوا القسم المالكي (103).

ولم تتوقف هذه الحركة العلمية بالقيروان بل تسربت فيما بعد إلى أوروبا عن طريق صقلية، خاصة، فاعتمد قسطنطين الافريقي Constantin l'Africain على مصنفات الاطباء القيروانيين: إسحاق بن عمران، وإسحاق بن سليمان الاسرائيلي، وأحمد بن الجزار؛ واعتمد في علم الهيئة والفلك على أبي الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني.

وكان قسطنطين هذا قسا مسيحيا ولد بقرطاج سنة (406/1015) وتعلم بالقيروان، واتقن العربية، وأخذ عن مشاهير الاطباء، ثم سافر إلى مصر وواصل هناك تحصيل العلوم الرياضية، ثم لما رجع منها انتقل إلى صقلية حيث أسند إليه ملكها رئاسة دير منتي كاسنو Monte cassino فنقل إلى اللاتينية كتب الطب الافريقية (104).

ثم مضى قسطنطين إلى مدرسة ساليرنو (105) Salerno ينشر علم الطب

(102) ن . م، 1/235.

(103) الكعك، المرجع السابق، ص 25.

(104) حسن حسني محمد عبد الوهاب، المرجع السابق، 1/211.

(105) ن . م، 1/211-212.

ومناهجه هو وثلة من رفاقه ومن ساليرو انتقلت العلوم الطبية إلى نابولي
Napoli وبادوفا Padova(106).

وبفضل بيت الحكمة القيرواني نشطت الحركة العلمية، ونبغ رجال،
وترجمت كتب وصنفت أخرى، في علوم كثيرة مختلفة. واتسمت المساهمة
العلمية لبيت الحكمة بجديتها وموضوعيتها، فكان، بحق، أعظم مدرسة
علمية ظهرت بالقيروان، أيام ازدهار الحضارة بها.

4. المدرسة الأدبية

تعربت البلاد، ووجدت مراكز للتعليم، وشاعت المعرفة، وانتشرت اللغة
العربية، وتكون جيل نشأ في المربي العربي، فظهرت حركة أدبية متواضعة
في أولها، إلا أنها أخذت تقوى مع الأيام، برعاية بعض الأمراء الوافدين على
افريقية، فأخذ الشعر يتطور ويتسم بالجودة والرقّة «وربما خير موطن له
دولة الأغالبة، ودولة الفاطميين، ودولة الصنهاجيين(107)».

وكان الشاعر العربي في هذه الفترة من التاريخ، يسجل لنا في أشعاره كل
شيء، فقد تحدث عن الثورات بإفريقية، والفتوحات بصقلية، وعن مواكب
الأغالبة بين القيروان ورقادة التي كانت تبدو في منتهى العظمة. وقد تناول
الحياة في سائر أنحائها، ولكن ضاع الكثير من هذا الأدب، ولم تصل إلينا
منه إلا صباغة(108).

ويعتبر ابراهيم بن الأغلب مؤسس الإمارة الأغلبية بالقيروان أديبا
شاعرا. قال يفتخر بانتصاراته(109).

ما سار عزمي إلى قوم وإن كثروا
ولا أقول، إذا ما الأمر نازلني
يا ليته كان مصروفا وقد وقعا
كما يجلي الدجى بدر إذا طلعا
حتى أجليّه قهرا بمعتزم
سأموا الخلاف بأرض الغرب، والبدعا
قوما قتلت وقوما قد نفيتهم
وكل ذي عمل يجزي بما صنعا
كلأ جزيتهم صدعا بصدعهم

Ben Yahia Aboubaker constantin l'Africain et l'école de Salerne - Les cahiers (106)
de Tunisie n° 9 - 3ème année 1955

(107) أحمد أمين، ظهر الاسلام، 301/1.

(108) محمد الهادي العامري، العلم والادب في عهد الأغالبة، مجلة الفكر، نوفمبر، 1963.

(109) أحمد أمين، المرجع السابق، 301/1.

وكان ابنه زيادة الله شاعرا، متين اللغة، جزيلها، من شعره :

بالله لا تقطعن بالهجر أنفاسي فأنت تملك إنطاقِي، وإخراسي
صدود طرفك عن طرفي إذا التقيا مجرعي كأس إرغام، وإتعاس
لو لم أبحك حمى قلبي ترود به لم تستبح مهجتي يا أملح الناس

ومن شعره في وصف تفاحة (110).

ولابسة ثوب إصفرار بلا جسم تنم بأنفـاس الحبيب لمستم
تجمع معشوق لديها وعاشق فذو نظر يرنو إليها، وذو شم
سأفنيك أو أفني عليك تذكرا لمن أنت عطر منه في الرشيف واللثم
فقد هجت في قلبي لظى لتذكري وعنوانه في مقلتي دمعة تهمني
كأنني أدني حين أدنيك من به أثرت اشتياقي في عناق وفي ضم

ومن الأمراء الأغالبة الذين اشتهروا بقول الشعر، أبو العباس بن أبي
عقال بن ابراهيم، وأبو الحسن بن غلبون الأغلبي، وهذا شيء من شعره
يؤنب فيه نفسه.

أيا من يرى الرشـد في غيه ويحيط في السـداجيات القيـادا
تجافه بنفسك عن حتفها وخـذ لأمانك منك القيـادا
أجب داعي الله تعطـه فقد جاد بالنصح جهرا ونادى
ولا تله بالموبقات التي أبادت بوائقها من تـمادى (111)

ومن أكبر الشعراء الذين ظهوروا في الدولة الأغلبية، بكر بن حماد بن
سهر ابن أبي اسماعيل الزناتي (908/296) قدم إلى القيروان وهو صغير،
وتعلم فيها، ثم رحل إلى المشرق وأخذ عن كبار الأدباء، ثم رجع وأقام
برقادة يمدح أمراءها.

ومن مشاهير العلماء الذين بلغوا درجة عالية في مجال الأدب نثرا وشعرا

(110) ابن الأبار، الحلة السرياء، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1962/1381، ص 415.

(111) انظر بقية القصيد (العامري، المقال السابق، الفكر: نوفمبر 1963).

عيسى بن مسكين(112) كان عالما باللغة، جيد الشعر(113). أنشد متحسرا على شبابه :

لعمرك لو وجدتك يا شبابي بها ملكت يميني لارتجعتك
ولو جعلت لي الدنيا ثواباً وما فيها عليك، لما وهبتك
فقدتك فافتقدت لذيد نومي وطيب معيشتي لما فقدتك
ونحتك وانتحبت عليك دهراً فلم تغن النياحة حين نحتك
وقال مصورا مصائب الشيخوخة :

لما كبرت أتتني كل داهية وكل ما كان مني زائد نقصا
أصافح الأرض إن رمت القيام وإن مشيت، تصحبني ذات اليمين عصا

أما أبو الوليد عبد المالك بن قطن المهري، فهو شيخ أهل اللغة العربية والنحو والرواية ورئيسهم وعميدهم، والمقدم في عصره عليهم، وكان من أحفظ الناس لكلام العرب وأشعارها ووقائعها وأيامها...(114).

ومن الأدباء الكبار الذين أقبلوا على القيروان ونقلوا إليها ما كانت تعج به الأوساط العراقية الأدبية، أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي، (298 ت/910) كان أديبا ظريفا، شاعرا، مرسلا، كتب لبني الأغلب حتى أواخر أيامهم، ثم كتب لعبد الله المهدي. له كتاب في القيروان سماه: سراج الهدى، وله كتاب: «لقيط المرجان»، وقطب الأدب ورسالة بعنوان: الوحيدة المؤنسة(115).

وكان ابن الحداد إذا تكلف الشعر أجاده(116) من شعره ترك الشعر وطلب الرزق(117).

رغبت بنفسي عن دنيّ المكاسب وقد أعجزتني حيلة عن مطالبي
أبت همتي ألا سـمـواً إلى العلى وإن طأطأتني حادثات النوائب
وقد كان أبو عثمان فقيرا لكنه رغب بنفسه عن المكاسب الدنيئة، ولعله يشير هنا إلى مدح ذوي الجاه، ولم يرو له شعر في المدح قط(118).

(112) انظر شيئا من شعره في (ورقات 1/256).

(113) ترتيب المدارك، 3/213.

(114) أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص 249.

(115) ابن عذاري، البيان المغرب، 1/162، 163.

(116) عياض، تراجم، ص 351، الديباغ، معالم، 2/203.

(117) ن. م.، ص 361.

(118) المالكي، رياض النفوس، مخطوط، 2/48.

وتنظرنني إذا ذو المال يزهي بما يحوى من المال الجزيل
أراه كأن عيني لا تراه وأعرض عنه إعراض الملول
وأنشد متبرما بالحياة، متعجبا من تقلب الأحوال(119).

ما زلت من حادثات الدهر معتجبا حتى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة
لا بارك الله في عام وفي سنة كانت لشر زمان كان مختبئه
عادت أسافله طرا أعاليه ولا أعالي إلا وهي منكفئه
وقال ناعيا نفسه(120) .

كم عساي أعيش كم كم عساي كم عساي أبقى على الحدثان
بعد سبعين حجة وثمان قد توفيتها من الأزمان
يا خليلي قد دنا الموت مني فابكياني، هديتها وانعساني
ومن شعره :

فإن لم أزل دنيا، فقد نلت همّة تنزّه نفسي عن دنى المطالب
تراني، وفي صدري هموم كثيرة ضحوكا، لأخفي عن جليس وصاحب
وكتب ابن الحداد إلى حماس بن مروان، القاضي(121).

تعودت مس الضرّ حتى ألفتّه وأسلمني مسّ الليالي إلى الصبر
ووطن قلبي للأذى الأنس بالأذى وقد كنت أحيانا، يضيق به صدري
وصيرني يأسى من الناس راجيا لكثرة صنع الله، من حيث لا أدري
ولابن الحداد شعر في رثاء ولده، وابن أخ له وقع أسيرا(122).

ولم يقتصر الأدب على الامراء والعلماء والأدباء، في هذا العصر، بل
أسهمت بعض النساء في نظم الشعر. وأكبر مثال لذلك الأميرة مهربة بنت
الحسن بن غلبون التميمي التي نشأت في رقادة، في وسط ملؤه الرفاهية
والعزة، إذ هي من البيت الأغلبي الحاكم. وتلقت العلوم وفنون الأدب
والشعر خاصة فاشتهرت بذلك ووصف قريضها بالجودة(123).

(119) ن . م . 54/2.

(120) ن . م . نفس الصفحة.

(121) ن . م . 362/9.

(122) الخشني، طبقات، ص 148.

(123) حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، ص 48، فما بعدها.

ولم يصلنا من شعر هذه الاميرة، غير قطعة رثت بها أخاها أبا عقال بن غلبون الذي ذكرت له شعرا، من قبل وكان قد ذهب إلى مكة حاجا فطال مقامه بها، فكتبت إليه ترجوه العودة. فلما أبى التحقت به. والأبيات التي رثته بها، ورد خلاف كبير في كلماتها، بين حسن حسني عبد الوهاب (124)، ومحمد الهادي العامري (125).

ليت شعري ما الذي عانيتَه بعد طول الصوم مع نفي الوسن
مع غروب النفس عن أوطانها والتخلي عن حبيب وسكن
يا وحيدا لي ومن وجدي به لوعة، تمنعني من أن أجن
وكما تبلى وجوه في الثرى فكــــذا يبلى عليها الحزن
وفي ختام هذا الفصل أسجل بيتين من الشعر، يفيضان رقة ولوعة، أنشدتهما إحدى جوارى زيادة الله الثالث - الأخير - لما انتوى الهروب من الشيعة وقد بلغته أخبار جيوشهم الزاحفة. وكانت هذه الجارية تحرضه على أخذها معه، ذلك أنها لاحظت عليه انشغاله بجمع أمواله وكنوزه، واستعداده للرحيل دونها، قالت الجارية :

لم أنس يوم السوداع موقفها وجفنها في دمعها غرق
وقولها، والركاب واقفة «تركني، سيدي، وتنطلق»

5- مدرسة الزهد

إزاء هؤلاء الناس الذين رأيناهم يتحركون، في مختلف ميادين النشاط، بين معلمين، ومتعلمين، وغيرهم، وجدت جماعة نظرت إلى العالم بمنظار آخر، مغاير، ابتعدت عن الاحتكاكات، ولاذت بالعزلة، وقنعت بالقليل، زهدا في الدنيا وأهلها.

ومما لا شك فيه أن هناك أناسا، على العموم، يميلون إلى الانزواء والانكماش، وآخرين يحبذون الحركة والظهور. ومما يزيد المنزوين انطواء وعزلة، شدة إحساسهم بأن مجتمعهم تسوده أشياء كثيرة لا توافق مزاجهم ومبادئهم؛ وأنه يسير نحو الضلالة والهلاك.

ومن أيام الرسول ﷺ، كان ثمة أناس يجتمعون في المسجد، للذكر والدعاء، وأناس يجتمعون للنقاش، والأخذ والعطاء، في مجالات المعرفة

(124) ن . م ، ص 49.

(125) العلم والادب في عهد الأغالبة، مجلة الفكر، نوفمبر 1963.

الدينية المختلفة، وبين الرسول أن كلا الجمعين على خير، لكنه فضل الفريق المعلم والمتعلم على الفريق الداعي، الذاكر.

وتعلم الطلبة، بالمشرق، فأخذوا عن بعض شيوخهم، فيما أخذوا، التخوشن في المأكل والملبس، والزهد في الدنيا، والابتعاد عن ذوي السلطان، وكان مالك ينصح تلاميذه بتقوى الله، وكان يكلف بعضهم الاقتصار على تلاوة القرآن.

ورجع بعض هؤلاء المتعلمين، منطبعين بتلك الميول إلى الزهد، والورع، والخوف من أهل النفوذ...

وتطالعنا هنا شخصية البهلول بن راشد، المعروف بزهد حتى روى أنه لم يخلع ثوبه عن جسمه مدة عشرين سنة. وعندما انتصب إبراهيم بن الأغلب، بالقيروان، بلغه خبر زاهد فقير، من قبيلة تميم، فبعث في طلبه، وجاء الزاهد ويسمى عبد الخالق القتات فأعطاه إبراهيم مائة دينار ليستعين بها على القيام بشؤون عياله، فرفض القتات، فزاده إبراهيم مائة أخرى. فقال له القتات: لو كانت لي حاجة لاكتفيت بالمائة، فزاده إبراهيم مائة أخرى، وما زال يزيده وهو يرفض، حتى بلغ خمسمائة دينار، فتعجب إبراهيم من أمره ثم قال: «أفسدكم البربري - يعنى البهلول بن راشد - والله لو أدركته لجعلته يرقص خلفي» (126). فقال له القتات : «والله لو أدركته، لكنت أهون عليه من هذا الطين الذي يعجن بين يديك وكان بين يدي إبراهيم طين يعجن لمرمة. وهذا الموقف، كما رأينا، يبين قيمة البهلول، ومدى تأثيره في أصحابه وتلاميذه. ويعتبر القتات من طبقة المجتهدين في العبادة، ولم يرو عنه علم غير مناقبه وفضائله» (127).

وممن عرف بزهد وكثرة دعائه أبو الحجاج رباح بن ثابت، (ت 851/237) كان يقول في دعائه : «اللهم إنك تعلم أنني عبدتك حيا لك، وشوقا إلى وجهك الكريم، فابحنه مرة، واصنع بي ما شئت» (128).

ومن تشدد هذا الزاهد على نفسه، أنه حلف ألا ينام مضطجعا وأن لا يضحك أبدا، وأن يأكل سمينا، فما رئي مضطجعا أو ضاحكا أو أكلا سمينا، حتى مات (129).

(126) أبو العرب، المصدر السابق، ص 144.

(127) ن . م، ص 40-141.

(128) الدباغ، معالم، 41/2.

(129) المالكي، رياض، 198/1، الدباغ، معالم، 41/2.

ولا شك أن هذه الاشياء الغربية، وهذا التشدد مع النفس الانسانية الضعيفة، والتي أحل الله لها الطيبات من الرزق، وأمرها بأن لا تنسى نصيبها من الدنيا، ربما كان سببه شدة الخوف من عذاب الله، الذي صورده القرآن أدق تصوير بحيث لم يعلق بذهن هؤلاء إلا تلك المشاهد والصور ليوم القيامة، وأهوال جهنم وسقر.

ومن هؤلاء الزهاد من كان يتجنب حتى سماع الحديث عن الدنيا أو أي من علائقها، وهذا ما كان من قبل أبي رباح بن يزيد اللخمي، الذي أنكر على البهلول، وهو من عرف بزهده وتقواه وشدته على نفسه - أن تذكر الدنيا في مجلسه(130).

وكان سحنون رغم غناه، زاهدا في الدنيا، متخشنا في ملبسه ومطعمه، كثير الصدقات، لم يقبل رزقا عندما تولى القضاء(131) معروفا برقة قلبه وغزارة دمه، وتواضعه(132).

إلا أن سحنونا، كان زاهدا غير متواكل، فلم ينكمش عن الدنيا، وإنما كان عاملا، ناشطا، يخرج إلى البادية ليحرث أرضه، ويتفقد زيتونه، بنفسه. وأسس أبو محمد الأنصاري الضريير مسجدا، في أوائل القرن الثالث الهجري، قرب الدمنة(133)، وكان من المقيمين بها، فكان يصلي فيه، واستمر المسجد يؤدي وظيفته الأساسية - الصلاة - بعده.

ولكن، منذ أواسط القرن الثالث، حل به جماعة تذاكروا فيه القرآن والحديث، وتناسدوا الاشعار بتطريب، فرادى وجماعات، وكانت اجتماعاتهم، كل يوم سبت، لذلك سمي مسجد السبت(134) وانتشرت أخبار هؤلاء وغزت قلوب العامة فراحوا يفدون عليهم أفواجا.

وكانت قراءاتهم تشمل آيات قرآنية فيها حديث عن أهوال جهنم... وأشعارا تزهد في الدنيا. ومن أمثلة ما كان يذكر في هذا المسجد، قوله عز وجل : تلك الدار الآخرة، نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) (القصص، 83) ومن الاشعار التي كانت تنشد قولهم :

دع الدنيا لمن جهل الصوابا فقد خسر المحب لها وخابا
وما الدنيا، وإن راقتك إلا كبلقة رأيت بها يبابا(135)

(130) ن . م، 213/1.

(131) الخشني، طبقات، ص 236.

(132) الدباغ، المصدر السابق، 51/2.

(133) محمد البلهي النبال الحقيقة التاريخية للتصرف الإسلامي، تونس، 1384 هـ، ص 1653.

(134) الدباغ، معالم، 160/2.

(135) المالكي : المصدر السابق، 371/1.

ونظر يحيى بن عمر، إلى هؤلاء فلم يرقه جمعهم، وأحس بالخطر يحدق بالناس، فمضى يقاومهم، إذ رأى ذلك بدعة في الدين. ثم أنه ألف كتابا في الرد عليهم مفندا دعاويهم وبدعهم، فتصدى له هؤلاء وعارضوه معارضة شديدة.

وهناك مسجد آخر، يسمى مسجد الخميس تقرأ فيه الرقائق، كل خميس، بناد أبو إسحاق إبراهيم بن المضا الضرير(136).

وتعج كتب التراجم باخبار الزهاد، وخاصة منها كتاب رياض النفوس، بجزأيه، للمالكي، الذي خصصه لآخبار الزهاد والعباد...

وكثيرا ما يذكر هؤلاء الزهاد عند الترجمة لهم بأن الرجل منهم كان مستجاب الدعوة، أو كثير الدعاء، سريع البكاء، ورعا، أو مات شهيدا للقرآن(137).

كما وصفت فصول داخل الترجمات توضح جوانب الزهد والعبادة واختصاص بعض العلماء بذلك، فضلا عن ذكر فضائلهم ومناقبهم...

- وكان لهذا الجو الديني، الزاهد، تأثيره في العامة، كما تأثر به حتى عليّة القوم، فهذا أمير أغلبي بعد أن عبث وخبر اللهو والحياة الماجنة، وطوف، يندم ويتوب، وينهي آخر أيامه في مكة. وقد تقدم شيء من شعره وهذه أبيات أخرى له :

بلوت الزمان، وسست البلاد ونافست في كل شيء عنادا
شربت المدام، وسست القيّان ورضت الجياد، ورائت الشدادا
ثم بعد أن يعدد اعماله، في أيام شبابه، يذكر كيف تنكب هذه الطريق العابثة، ومال بكليته إلى الزهد، قال من نفس القصيد.

وباينت ما كنت ألهو به فأمسى وأصبح عندي سهادا
رضيت بدون الكفاية قوتا وبالله عن كل خلق عمادا

اتضح مما تقدم أن الثقافة الإسلامية بالقيروان، ذات سمة متميزة إذ تجلّت في المجال العقدي بالتشبث بالاتجاه السني ومجادلة الاتجاهات الأخرى المخالفة: الخارجية والمعتزلية والشيعية، بالحكمة والحوار الرصين، في أغلب الأحوال، وفي المجال الفقهي اعتمد المذهبان الحنفي والمالكي ثم كان

(136) الدياغ، المصدر السابق، 2/116.

(137) المالكي، المصدر السابق، 1/371.

التمسك بهذا الأخير والانتصار له، مما أدى إلى وضع أسس مدرسة عظيمة، سيكون لها شأن كبير في المغرب والقارة الافريقية، وستتبعها مع الأيام، الصدارة، وتصبح أكبر مراكز المالكية وأغناها تراثاً فكرياً واجتهاداً ريادياً.

وكان للعناية بالعلم وترجمة الكتب الطبية والحكمية والفلكية نصيبها، في بيت الحكمة القيرواني، كما كان لبذور المدرسة الأدبية أثرها في وضع أسس التطور الذي لحق فنون النثر والشعر والنقد الأدبي في القرنين الهجريين اللاحقين الرابع والخامس. كما كان لظاهرة الزهد رجالها وتراثها ولكن الذي ساد المجتمع القيرواني خلال القرن الثالث الهجري تشبثه بمالكيته وحبه للعلم وانقطاعه إلى العمل، ولين عريكته وتسامحه، وسمو أخلاقه، وهي خصائص الشعب التونسي إلى اليوم، فهو بها يتميز، ويبني ويقدم إسهامه الحضاري الفعال.

الدكتور عبد المجيد بن حمدة